د. محمد شوقي الزين

مناهج فلسفية معاصرة

الحصة الرابعة

التأويلات الفينومينولوجية

الفينُومِينُولُوجْيَا: عِلْمُ الظَّوَاهِر

- الفينومينولوجيا هي «علم الظواهر». إنها الرؤية التي تُجرِّد الأشياء عن أغلفتها الحسيَّة والنَّفعية، لترى هيكلها الخالص المسمَّى الماهيات. جُل وظائف الفينومينولوجيا تكمن في الوقوف عند حقيقة الأشياء، أي عند المضامين أو المحتويات، لا الأطر الحاوية سواء كانت موادّ أو أغراض.
- «الظَّاهِرَة هِيَ مَا يَبْدُو للذَّاتِ الوَاعِيَة [الوَعْي]، وَيَتَبَدَّى في أَشْكَالٍ مُتَعَدِّدَة: 1. إِمَّا كوَاقِعَة خَارِجِيَّة مَوْجُودَة بذَاتِهَا وَهُوَ مَا تَتَكَفَّلُ بهِ عُلُوم الطَّبيعَة؛ 2. وَإِمَّا كوَاقِعَة بَاطِنِيَّة مِنْ فِعْل الوَعْي، لا تُوجَدُ خَارِجَ الوَعْي وَهُوَ مَا تَتَكَفَّلُ بهِ السَّيْكُولُوجْيَا في حَدْيثِهَا عَنِ الوَقَائع النَّفْسِيَّة (أفْكَار، خَوَاطِر، أحَاسِيس، إرَادَات)» (بول فولكييه، قاموس اللغة الفلسفية، 1992، ص535).

الفِينُومِينُولُوجْيَا: هُسِّيرْل

- مع **هُسيرل** (1859-1938م)، اتَّخذت الظاهرة دلالة «التحليل الوصفي»، أي المنهج الذي يكتفي بما هو معطى في محض ظهوره للوعي. تبقى المشكلة في التمييز بين «الإحساس بما هو معطى» (المحايث) و«المعطى في ذاته» (المتعالي). مثلاً: الإحساس باللون في أول نظرة على الشيء الملوَّن؛ وهذا الشيء الملوَّن المعطى لنا. من هنا انبثقت مشكلة الموضوع والمعيش، أي اللون كما نراه، واللون كما نتمثَّله، أو الفرق بين «الموضوع الخارجي» (Gegenstand) و«الموضوع الذهني» (Objekt). يُصبح الشيء «الظاهر» (Erscheinung) موضوع بحثٍ ودراسة، فيرتقي هكذا إلى «الظاهرة» (Phänomen)، أي يتمُّ توضيعه (objectivation) في العلم المسمَّى الفينومينولوجيا وهو «نظرية المعيش على العموم» (Husserl, *Recherches logiques*, t. 3, p. 283, cité par F. Dastur, « Erscheinung », in *Vocabulaire européen des philosophies*, sous la dir. de Barbara Cassan, Paris, Seuil/Le Robert, 2010, p. 376.).

- نمط وجود الشيء في الواقع، خارج كل تمثل. يُسمَّى أيضاً *real*أو ontiqueأو transcendant.

- نمط وجود الشيء في الذهن أو العقل. يُسمَّى كذلك *reel*أو interneأو immanent.

المَظْهَرُ (Erscheinung) وَالظَّاهِرَةُ (Phänomen)

- يبقى الإشكال في أن المصطلحين (Erscheinung, Phänomen) غير متمايزين في الألمانية، أو أن هسيرل استعملهما بالمعنى ذاته، وهو «ما يظهر في الظاهرة عينها»؛ غير أن هايدغر سعى لأن يُميّز بينهما، جاعلاً من Erscheinungالأمر الظاهر الذي يحيل إلى شيء آخر خفيّ، لا يظهر؛ بينما Phänomen، هو «ما يظهر بذاته».

- المفارقة هي أن Erscheinen هو الخفي أو الشيء المتخفّي في الشيء الظاهر، وPhänomen هو الجليّ. بهذا المعنى، يكتسب Erscheinung دلالة سلبية في المظهر أو السيمولاكر، ويكتسي Phänomen دلالة إيجابية في الظاهر من الظاهرة، المتجلّي.

- الغرض من مفهوم الظاهرة هو تحييد البُعد «التجريبي» أو «الأمبريقي» (empirique)، للوصول إلى الماهية الخالصة: «الظاهرة، تقول ناتالي دوبراز، هي المعطى الخالص للظاهر» (Natalie Dupraz, *Le phénomène*, Bréal, 2014, p. 99.).

القَصْدُ وَالقَصْدِيَّة (1)

- الكلمة (intention) من اللاتينية (intentio) معناها «فعل التمدُّد نحو» (tensio من الفعل tendere)، أو الذهاب نحو. عندما نقول «قَصَدَ الشَّيْءَ» معناه ذهب نحوه. فالقصد هو الذهاب نحو الشيء أو فعل الشيء (نسميه في لغتنا «النية»). يتَّخذ بهذا المعنى بعض المرادفات: الغرض، المشروع، التصميم، الخطة، الهدف، الإرادة، إلخ.

- بالمعنى الفلسفي، **القصد** هو علاقة الذهن بالموضوع الذي يستهدفه، وبدلالة أوسع القصد هو الفكر نفسه. يرتبط القصد بشيء مفترَض، تبعاً لقول فلاديمير يانكلفتش في الجزء الأول من كتابه «رسالة في القيم» عنوانه «رصانة القصد»: «القصد هو نوع من السلوك نحو المستقبل» (V. Jankélévitch, *Traité des valeurs*, t. 1, *Le sérieux de l'intention*, Bordas-Mouton, 1968, p. 81). لا يوجد قصد عام أو مجرَّد، لأنه يرتبط دائماً بشيء محدَّد. القصد هو دائماً قصدُ شيءٍ ما. كذلك القصد هو فعل الشيء: أن أقصد مكاناً معيَّناً معناه أنني أتَّجه إليه. إذا خلا الفعل من القصد فهو مجرَّد حركة فيزيائية (mouvement). قام السكولائيون (les Scolastiques) بالتمييز بين نوعين من القصد: **القصد المعرفي أو الإدراكي** (cognitif) وهو قصد سكوني (statique)؛ و**القصد الإرادي** (volitif) وهو قصد حَرَكي (dynamique). القصد المعرفي أو الإدراكي سيكون محط اهتمام من طرف الفينومينولوجيين، وكان السكولائيون يعنون به موضوع التفكير الذي ينطبق عليه الفكر؛ ويعنون بالقصد الإرادي الهدف الذي تتجه نحوه الإرادة.

القَصْدُ وَالقَصْدِيَّة (2)

- ستركّز الفينومينولوجيا على مسألة مهمَّة وهي أن القصدية عبارة علاقة (relation) بين الوعي وموضوعٍ ما، وليس بالضرورة أن يكون هذا الموضوع موجوداً: مثلاً أن يتمنَّى الشخص شيئاً (مثلاً السفر إلى المريخ) ولكن أمنيته لن تتحقق أبداً، فعلاقته القصدية هي بموضوع معدوم. يقول كلود رومانو: «نَظَرِيَّة القَصْدِيَّة لا يُمكنُها أنْ تَكونَ نَظَرية التمثُّل العَقْلي، فَهِي علَى العَكْس تَماماً: عَلَيها أنْ تُبيّنَ أنَّ الوَعْيَ في جَوْهَرِهِ الفينومينولوجي هُوَ "عَلَاقَة بالشيء المتعالي"» (Claude Romano, *Au cœur de la raison, la phénoménologie*, Paris, Gallimard, 2010, coll. « Folio/Essais », p. 83.). القصدية هي علاقة، وبوجه أخص علاقة بموضوعٍ، سواء أكان هذا الموضوع موجوداً أم معدوماً. ليست القصدية فلسفة تمثُّلية (لا نتمثَّل الشيء) ولكن فلسفة إدراكية ووصفية (نقف على خصائص الشيء لبلوغ ماهيته).

- معنى ذلك أننا لا نتمثَّل الشيء، الذي أمام أعيننا، بالحصول على انطباع حسي يتحوَّل إلى تصوُّر ذهني، ولكن نقصد الشيء في ذاته. من هنا كانت الفينومينولوجيا في أساسها «العودة إلى الأشياء ذاتها»، كمنطلق في نقد النزوع التمثُّلي السيكولوجي. «الشيء ذاته» (die Sache selbst) لا يعني «الشيء في ذاته» (noumène) بالمعنى الكانطي.

- « *Wir wollen auf die "Sachen selbst" zurückgehen* » (Husserl, *Logische Untersuchungen*, II- *Untersuchungen zur Phänomenologie und Theorie der Erkenntnis*, Halle, Max Niemeyer, 1901, Einleitung, § 2, p. 7) ; « Nous voulons retourner vers les choses-mêmes ».

الوَعْيُ هُوَ الوَعْيُ بِشَيْءٍ مَا (هُسِّيرْل)

- القصد، بالمعنى الفينومينولوجي، هو «سُلُوك الوَعْي في إضْفَاء المعْنَى عَلى مُعْطَيَات الإدْرَاكِ وَالخيَال وَالذاكرة» (P. Foulquié, *Dictionnaire*, op. cit., p. 376) وغيرها من الظواهر الذهنية؛ أو هو أيضاً: «توجُّه الوعي نحو شيء آخر غير الذات وهو الموضوع، موضوع الوعي الذي له معنى».

- **«الوَعْيُ هُوَ الوَعْيُ بشَيْءٍ مَا»**: هذا هو إذن المنطلق الفينومينولوجي في تحديد مفهوم القصدية كما جاء في «تأمُّلات ديكارتية» عند هسيرل. يقول: «كَلِمَةُ "قَصْدِيَّة" لا تَعْني شَيْئاً آخَرَ سِوَى الخصُوصِيَّة الأسَاسِيَّة وَالعَامَّة التي يَتَحَلَّى بِهَا الوَعْي في كَوْنه وَعْياً بشَيْءٍ مَا، بأنْ يحْمِلَ في ذَاتِهِ، بوَصْفِه تَفْكِيراً (cogito) الشيْء المفكَّرُ فِيهِ (cogitatum)» (Husserl, *Méditations cartésiennes*, PUF, I, p. 14.). فكرة «الوَعْيُ بشَيْءٍ مَا» تدل إذاً على مسألتين: التعالي من جهة، وهو مجاوزة الوعي لذاته؛ والقصد من جهة أخرى وهو استهداف موضوع الوعي في الوعي نفسه، أي الشيء المفكَّر فيه. ما أراده هسيرل بالقصدية هو مجاوزة الطرح الديكارتي الذي كان يرى في الوعي كشيء مفكِّر (chose pensante)، بينما الغرض هو تبيان أن الوعي هو إدراك الشيء باستهدافه (une visée). عندما يدرك الوعي الشيء نسميه **«فعل التفكير»** (noèse)؛ وعندما يكون الشيء مُدركاً من طرف الوعي نسميه **«الموضوع القصدي»** (noème). بينهما إذن تضايُف (corrélation) كما بين قفا الورقة وظهرها.

تَضَايُف المَوْضُوع وَالوَعْي

- في علاقة التضايف بين الوعي والظاهرة، نحن أمام علاقة بين ذات وموضوع بالمعنى العريق لنظرية المعرفة، لكن ليست هذه العلاقة مجرَّد إدراك منفعل بحيث تنتقش صورة الأشياء المحسوسة في الوعي في شكل انطباعات (impressions) كما كان الحال مع التجريبيين مثل ديفيد هيوم، ولكن إدراك فاعل هو نشاط الوعي، لأن الموضوع المدرَك هو موضوع قصدي، لا شيء حسي؛ وهذا الموضوع القصدي يشكّله الوعي بالإضافة إلى المعطى الذي ينبري بذاته من الموضوع. هذا ما يُبيّنه فرانسوا ليوتار وهو أن القصد (intention) ليس الانتباه (attention)، بمعنى إدراك واعٍ للموضوع، لأن ثمّة إدراكاً ضمنياً، قصدية متوارية ليست دائماً بارزةً أو مكشوفةً. الغرض من التحليل القصدي (analyse intentionnelle) هو تبيان كيف يتضمَّن الموضوع في الوعي.
- يُفسّر جون فرانسوا ليوتار المسألة بتبيان دور منهج الردّ في تشكيل الموضوع القصدي: «بِمَا أَنَّ الوَعْيَ هُوَ القَصْدِيَّة وَأَنَّه يمْكِنُ إجْرَاءُ الرَدِّ دُونَ فُقْدَان مَوْضُوع الرَّدِ، فإنَّ الردَّ مَعْنَاهُ تَحْويل كُل مُعْطَى إلى مُقَابِل (vis-à-vis)، إلى ظَاهِرَة، وَتبْيَان الخَاصِّيَّات الجَوْهَرية للأنا: أَسَاسٌ جِذْري أوْ مُطْلَق وَمَنْبَعُ كلِّ دَلَالَة أوْ قُوَّة مُؤسِّسَة، رِبَاطُ القَصْدِيَّة مَعَ المَوْضُوع» (Jean-François Lyotard, *La phénoménologie*, Paris, PUF, 1957, 11e éd., 1992, p. 29.).